

الأحجار الكريمة المستعملة في مصاغ المرأة بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني

د. عائشة حنفي*

الملخص:

يتمحور هذا المقال حول أهمية الأحجار الكريمة في مصاغ المرأة الجزائرية، وكيف أن هذه الأحجار الكريمة تجذب الأنظار بألوانها الجذابة وبريقها الأخاذ، ولكن تلك الصفات الجميلة لا تتجلى لناظرنا، إلا إذا قطعت الحجارة بمهارة وصقلت وهيئت للحلي. ولقد تحدث المؤرخون وعلماء المعادن كثيرا على الحجارة الكريمة باعتبارها معادن نادرة لها خصائصها العلمية وليست مجرد أدوات للزينة فحسب، ويتصل الكثير من هذه الخصائص بعلوم مختلفة. وقد وضع العلماء لكل جنس ونوع من تلك الأحجار اسما علميا خاصا بحسب ما يمتاز به من خصائص وهذا ليس في اللون فقط، كما كان يفعل العديد من تجار الأحجار الكريمة، بل ومن حيث أشكال بلورة الحجر ومعامل انكسار الضوء عند مروره فيه، وقانونه الكيميائي، ودرجة صلابته، وثقله النوعي. تمتاز الأحجار الكريمة عن بعضها تماما كما يمتاز بنو البشر بسلوكهم وصفاتهم الحسنة أو السيئة.

الكلمات المفتاحية: المصاغ، الحجارة الكريمة، المرأة الجزائرية، العثماني.

Abstract:

This article is about the value of diamond stones as a jewelry for the Algerian woman, those diamonds can attract attention with its glamorous colors

* أستاذة محاضرة بمعهد الآثار - جامعة الجزائر 2، الجزائر.

and its shining, but that beautiful qualities are not evident to onlookers except if the Diamonds stones are skillfully cut, refine, and prepared as Jewelry. Historian and metal scientists talked about diamonds stones considering it as a rare metal that have a scientific characteristics not just an accessory tools, and those characteristics are related to different sciences.

Scientists had put those species and types of diamonds under special scientific names and that according to its characteristics and not just according to the colors as the diamonds traders used to and according to the shape, reflecting of the lights hardness degree, specific weight.

Key words : The Algerian woman ,The diamond stones, The jewelry, The glamorous.

مقدمة:

عرف الإنسان المعادن منذ القدم، وأتقن طريقة استخراجها من باطن الأرض وطريقة استخلاصها مما علق بها من الشوائب على مر العصور، كما اهتمت إلى طريقة خلطها ببعضها البعض للحصول على معادن جيدة، وكان أول ما استخدمها في صنع الأسلحة ليدافع بها عن نفسه، ثم صنع منها شتى أنواع السلع التي كانت بسيطة في زخارفها، غير معقدة في تكوينها.¹

ولعبت الفنون المعدنية دورا كبيرا في العصور الإسلامية وحظيت بالرعاية والتشجيع من قبل الحكام، حيث شكل الفنان المسلم من المعادن ما يستخدم في الحياة اليومية من أواني وقدر نحاسية، أو ما يتخذ للحلية أو أدوات قتال يدافع بها في الحروب كالسلاح. وكانت أهم المعادن التي استعملها المسلمون والتي لها الدور الأساسي في صناعة الحلي، هي المعادن الثمينة كالذهب والفضة مع الأحجار الكريمة، بالإضافة إلى مواد أخرى مثل النحاس، والعاج، والمرجان وغيره.

كما انتقلت إلى الدولة الإسلامية موروثات الشعوب العديدة السابقة لقيامها، فهضموها بحيث أصبحت علما قائما بذاته عندهم يدعى علم الأحجار وألفوا فيه كتباً مستقلة في وقت مبكر من مسيرة الحضارة الإسلامية منذ بدايات القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وقد أضافوا إلى هذا العلم، إضافات واضحة مقارنة بما تركه اليونان والرومان. وتجلت هذه الإضافات في استعمالهم الصفات الطبيعية للمعادن في التعرف عليها وتمييز بعضها عن بعض على نحو مشابه لما نفعله اليوم في العلم الحديث. كما كان الأسلوب العلمي التجريبي رائدهم عند استعمال هذه الصفات، وقد قاسوا الوزن النوعي لكثير من المعادن، كما أضافوا إلى قائمتها المعروفة قبلهم، وصنّفوها وكتبوا في طرق البحث عنها في الطبيعة وعن كيفية تعدينها واستخلاص الفلزات من خاماتها. ويقتضي أن نذكر أن أبا الريحان البيروني، قد بذل من سبقه ولحقه في هذا العلم.²

أما بالنسبة للجزائر، فقد عرفت الصناعة في العهد العثماني كل أنواع المعادن حيث استخدمها الصانع في صنع منتجاتهم، وأتقنوا بذلك طرق صناعتها وزخرفتها. وقد انتعشت الصناعة المعدنية في الجزائر بتوفر عدّة مناجم، وامتازت بالبساطة والخشونة، وفي معظم الأحيان كانت تستعين في صناعتها بمواد خام تستوردها من البلدان الإفريقية والإسلامية والأوروبية خاصة.³

لقد كانت السفن تأتي تباعاً من إسبانيا محملة بمواد الاستهلاك المختلفة، ومن بين ما تجلبه الأحجار الكريمة وكميات من الذهب والفضة، وتكون غالباً في شكل قطع نقدية، ويورد الدكتور حليمي في كتابه "مدينة الجزائر" في أحد جداول الواردات استيراد الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة من إسبانيا وفرنسا.⁴ ويذكر "Eudel" أن الذهب النقي الصافي، كان يأتي في

عهد الدايات من سبائك الاحتياط الموجودة بمخازن القصبة.⁵ وأجمل ما استعمل الصاغون الجزائريون في صناعتهم للحلي الأحجار الكريمة.

أولاً: تعريف الحجر الكريم:

تطلق كلمة حجر كريم على الأحجار النفيسة وشبه النفيسة ولاسيما إذا حفرت ونقشت عليها الرسوم الجميلة أو العبارات الأنيقة، وقد عثر عليها الإنسان بمقادير وفيرة منذ العهد السومري إلى أفول نجم الحضارة الرومانية ثم قامت صناعتها مرة أخرى منذ أيام النهضة الأوروبية، أي العصر الحديث. ولفتنتها وجاذبيتها، سحر على الناس فقيرهم وغنيهم على السواء، ذلك لأن جمالها المكنون وبريقها وصفاءها وألوانها الأخاذة المتعددة التي تنسجم مع كل ذوق. كل تلك الصفات الفاتنة مجتمعة تجعل صاحبها محط الأنظار والإعجاب.

وكانت طبيعة تلك الأحجار الكريمة من ناحية صلابتها ومتانتها، سببا للاحتفاظ بها قرونا طويلة، ولهذا نستطيع اليوم، أن نقدر حدق رجال الفن، ومهارتهم، وجمال ذوقهم، في عملهم الفني، لأن دقة أحجام الأحجار الكريمة، ونفاستها، تطلبت بدون شك، مهارة فنية ممتازة، قلما نعثر عليها في الفنون الصناعية الأخرى. ولا يقل تقديرنا لحفار الأحجار الكريمة، عن نحات التماثيل بأي حال من الأحوال.

وتستخدم الجواهر في الزينة الشخصية، وقديما كانت تنسب إلى بعضها مجموعة من الخصائص غير الطبيعية، فكانت تتخذ منها الأحجبة، والطلسمات، والتعاويذ لمعالجة الأمراض والتحصين ضد الأرواح الشريرة، ودفعها عن الإنسان. كما كانت الأحجار الكريمة في الغالب، رمزا للسيادة، وسمو المكانة، ولذلك قصر استخدامها على الملوك، والنبلاء، ورجال الدين.⁶

ثانيا: خصائص الحجر الكريم:

إن صفة الجمال في الأحجار الكريمة، تحددها مجموعة من الخصائص مثل: اللون، والبريق، والشفافية، ومعامل الانكسار. وقد تكون الأحجار الكريمة ملونة كما هو الحال بالنسبة للياقوت (أحمر اللون) والزمرد (أخضر اللون) والفيروز (أزرق اللون) كما أنها قد تكون عديمة اللون ومن أظهر الأمثلة على ذلك، الأماطأو الماس أغلى وأثمن الأحجار الكريمة على الإطلاق.

وتتميز الأحجار الكريمة العديمة اللون، بصفتين بارزتين هما: التألّق أو الإشراق، أو الإبهار، والتشتت. ويقصد بالتألّق مقدرة البلورات المكونة للحجر الكريم على عكس الضوء إلى العين، أما التشتت، فيشير إلى قدرة البلورات على تشتيت الأشعة الضوئية وتحليلها إلى ألوان الطيف المعروفة.⁷

وتعتبر الأحجار الكريمة أزهار مملكة المعادن، فهي زهور لا تذبل ولا يزول قدرها مع الزمن، تجتذب الأنظار بألوانها الجذابة وبريقها الأخاذ، ولكن تلك الصفات الجميلة لا تتجلى لنواظرننا، إلا إذا قطعت الحجارة بمهارة، وصقلت وهيئت للحلي. بل لعل خامة الحجر الكريم لا تبدو شيئا يستحق العناية إذا وقعت في أيدينا، ولكنها تحظى بمكانتها الحقيقية عند الخبير، لأنها تخفي في صميمها هباتها الطبيعية التي لا ترى بالعين المجردة.⁸

والصفات التي تتميز بها الأحجار الكريمة، هي التي تتحكم في تقديرها ولكن هناك بعض العوامل الأخرى المؤثرة، كعامل الندرة، فالوفرة والندرة يؤثران على مكانة الحجر، كما تؤثر تماما الخصائص الطبيعية. ولذلك لجأ المشتغلون في الأحجار الكريمة، ولاسيما الماس إلى المحافظة على مكانته، بأن سيطروا على المقادير التي تعرض منه في أسواق العالم، فإذا اكتشفت كميات وفيرة منه، عمدوا إلى إيداعها والمحافظة عليها مدة من الزمن، ولا يخرجون

منها إلا مقادير محددة، ولذلك يحافظون على الأسعار العالمية للماس ولا يعرضونها للتدهور والتلاعب.

ثالثاً: أنواع الأحجار الكريمة المستعملة عند صاغة الجزائر في العهد

العثماني:

هناك أنواع شتى من الأحجار الكريمة التي يمكن استخدامها في الحلي، لكن لا يعرفها صناع الجواهر لعدم تمكنهم منها، وربما لن تصل إليها أيديهم، ولكن يعرفها علماء المعادن ويحافظون عليها في مجموعاتهم بالمتاحف العالمية، وهم بكشوفهم وبحوثهم المستمرة، يعملون على تطور علم المعادن ولاسيما ما يتصل بالأحجار الكريمة النادرة. ولا نندهش إذا علمنا أن للجواهر أي الأحجار الكريمة علماً مستقلاً يعرف اليوم باسم Gemologie يبحث فيها باعتبارها معادن نادرة لها خصائصها العلمية وليست مجرد أدوات للزينة فحسب. ويتصل الكثير من هذه الخصائص بعلم الضوء، والتبلور، والثقل النوعي. وقد وضع العلماء لكل جنس ونوع من تلك الأحجار اسماً علمياً خاصاً بحسب ما يمتاز به من خصائص وهذا ليس في اللون فقط، كما كان يفعل كثير من تجار الأحجار الكريمة، بل ومن حيث أشكال بلورة الحجر ومعامل انكسار الضوء عند مروره فيه، وقانونه الكيميائي، ودرجة صلابته، وثقله النوعي.

ويقدر اليوم عدد الأحجار المعدنية التي حددت خصائصها بحوالي ألف ومائتين نوعاً، فيها خمسون على الأقل قطعت وشكلت وصقلت في صناعة الحلي، وتمتاز تلك عن بعضها تماماً كما يمتاز بنو البشر بتسلوكهم وصفاتهم الحسنة أو السيئة. وقد يتشابه اثنان في خاصية أو اثنتين، ولكنهما يختلفان في خصائص أخرى، لذلك فإن ما يظنه بعض الناس، من أن

الجوهرين يستطيعون التمييز بين أنواع الأحجار الكريمة بمجرد النظر والمشاهدة ليس صحيحا.⁹

أما بالنسبة للأحجار الكريمة المختلفة التي استعملها الصاغة الجزائريون، فكانت كما سبق القول مستوردة هذا حسب ما جاء في لوائح الواردات عند المؤرخين أو من غنائم الأسلاب البحرية أو من الحلي القديمة. وقد استعمل الصاغة الجزائريون مختلف أنواع الجواهر وأهم ما نجده عندهم:

الأماس:

الأماس، والألماظ، وإدامس، والمياس، سيد الأحجار الكريمة على الإطلاق وأصلها، وهو لفظ يوناني معرب¹⁰. والماس على أنواع عديدة منها الأبيض، والزيتي، والأصفر والأخضر، والأسود،¹¹ ويذكر الجاحظ أن خير أنواع الماس هو البلوري الصافي الأبيض النقي، ثم الأحمر.¹² ويذكر البيروني أن معز الدولة أحمد بن بويه، كان قد أهدى إلى أخيه الحسن ركن الدولة*، فصا من الأماس زينته ثلاثة مثاقيل**، لم يسمع أعظم منه في ذلك الوقت.¹³

وتقدر درجة صلابة الماس بعشر درجات، ذو طبيعة شفافة، ثقله النوعي 3,5، والماس كربون متبلور، ويتبلور في فصيلة المكعب في نظام يطلق عليه "سداسي الثماني الأوجه" ويتميز بشفافيته الشديدة وبريقه الأماسي. كما يمتاز عن غيره من المعادن بألوانه النارية المتعددة: الأزرق، والأبيض، والأسمر، والأخضر، والأحمر، والأبيض المائل إلى الزرق، والأصفر الزعفراني وما هو لا لوني¹⁴، المتألثة، والبراقة الباهرة التي تجعل منه حجرا كريما*، بسبب معامل انكساره الكبير جدا (2,32)، وقدرته القوية على تفريق وتشتيت الضوء والألوان.¹⁵

وفي الكتاب المعنون "أزهار الأفكار في جواهر الأحجار" نقل الشيخ أحمد بن يوسف التيفاشي**، عن أرسطو، أن الماس أو الألماظ كان يستعان به في

تفتيت حصيات المثانة، وأنه ينفع مع المغص الشديد، ومع فساد المعدة إذا علق على البطن من الخارج، وإذا علق على الطفل في وقت ولادته، حفظه من الفزع والصرع.¹⁶

ومن العلماء المحدثين من يؤكد كلام أرسطو في مسألة معالجة الماس للمغص المعدي مستندا في ذلك إلى أن الماس من الكاربون، ومن تم فهو يمتص الغازات المسببة للمغص عبر مسام البطن، مثله في ذلك مثل أقراص الفحم التي تستعمل في التخلص من الغازات¹⁷، وهو يجلو الأسنان ويبيضها. ويقول الأبشيبي: "إن من خواص الماس، أن الملوك يتخذونه عندهم لشرفه وهو من السموم القاتلة، فالقطعة الصغيرة منه إذا حصلت في الجوف ولو بقدر السمسم، خرقت الأمعاء. ومن خواصه الجليلة، أنه يعرق عند وجود السم أو الطعام المسموم".¹⁸ ويرى العالم الهندي المعاصر فيجايكومر، أن الماس دليل الصفاء والشفافية ولبسه يعطي الإنسان قدرة عجيبة على مقاومة الأمراض، كما أنه يحفظ الإنسان من الحسد والسحر ولدغ الثعابين، ومن الإشعاعات الكونية الضارة.¹⁹

الياقوت:

لقد وردت كلمة " الياقوت " في القرآن الكريم في قوله تعالى "كأنهن الياقوت والمرجان".²⁰ ويذكر القلقشندي فيه أنه حجر ذهبي، كما قال فيه أنه من ضروب الحصى.²¹ ولم أستطع أن أتبين المقصود بالذهبي، أهو بسبب اللون، أم هو بسبب قيمته المادية؟ ومهما يكن من أمر، فإن الياقوت الذي استخدم كثيرا في الحلي الإسلامية، متعدد الألوان، منه الأحمر، والذي هو أعلاها مرتبة، ثم الأبيض، والأزرق،²² وأردئها الأبيض²³، ومن البديهي أن تفضل المرأة من فصوص الياقوت الأحمر،²⁴ والظاهر أن بعضها كان ثميناً جداً. وقد ذكر أنه كان لحيزران* خاتم ثمين من الياقوت الأحمر.²⁵

إن قطع الياقوت كبيرة الحجم، ونادرة الوجود، وإذا عثر على شيء منها قديما، سرعان ما احتفظ بها تحت حراسة شديدة. كان الحال كذلك على أيام ملوك بورما القدامى (ميانمار) فإذا سمع أحدهم عن اكتشاف ياقوتة جميلة، بادر إلى إرسال جماعة من الجند الأشداء للاستحواذ عليها في حفل كبير²⁶، وقد نذر اليوم العثور على ياقوتة خالية من العيوب، تزيد على قيراط أو قيراطين، وإذا عثر صدفه على واحدة منها من نوع سام، فإن ثمنها يرتفع إلى مبلغ كبير يفوق ثمن القيراط من أي حجر كريم آخر.

والياقوت أصلب الجواهر، ولا يخدشه منها إلا الماس، وهو أشدها صلابة وتقدير درجة صلابته 9، أما وزنه النوعي، فهو بين الرقمين 3,9 و4,1، ويكون الياقوت شفافا بعد قطعه.

وقد قال الشيخ التيفاشي: إن الياقوت يشبه الماس أو الأماظ في أنه يقطع كل الحجارة، وليس يقطعه شيء غير الأماظ. وقال: إن من خواصه الثقل، فإنه أثقل الأحجار المساوية له في العظم....، وقال بأنه يعبر على النار ولا يتكلس كما يتكلس غيره من الأحجار الثمينة كالزمرد وغيره، فضلا عن أنه يقبل البرودة بسرعة إذا خرج من النار بخلاف غيره من الأحجار.²⁷ وقد قال أرسطو: "إن الياقوت إذا علق على إنسان أكسبه مهابة ويسر له قضاء حوائجه ودفع عنه الطاعون!"²⁸

أما الأبشيبي فيقول بأن من خواصه أنه لا يعمل فيه الفولاذ، ولا حجر الأماظ، ولا تدنسه النار ويورث لابسها مهابة ووقارا، ويسهل قضاء الحوائج، ويدر الريق في الفم، ويقطع العطش، ويدفع السم، ويقوي القلب، وجميعه ينفع للمصروع تعليقا والأبيض منه يبسط النفس،²⁹ ومن علق عليه الياقوت الأبيض، اتسع رزقه، وحسن تصرفه في المعاش. ويقال أن الياقوت الأزرق، هو رمز الصداقة والحقيقة، والدوام. ويعتقد بعض الإيرانيين، أن الكون يرتكز

على قطعة كبيرة منه وينعكس نورها على صفحة السماء، ولذلك فإنهم يطلقون عليه اسم "حجر السماء" * أو "الحجر السماوي" ³⁰. والياقوت من أنفُس الجواهر وأجملها كذلك، قال الله تعالى في تشبيه الحور في الجنة "كأنهن الياقوت والمرجان" ³¹.

الزمرد:

هو عبارة عن حجر كريم، لونه أخضر بديع، ينتمي إلى مجموعة معادن البيريل، وقد اكتسب هذا الحجر الكريم مكانة سامية من لدن الإنسان منذ أمد بعيد وعرفه المصريون القدامى أكثر من 5000 عاما، وبلغ من شغفهم وولعهم به أنهم كانوا يذكرونه في أمثالهم وحكمهم ومواعظهم، ³² فصنعوا منه أدوات الزينة الصغيرة والتماثيل. وكان قدماء الإغريق يقدمونه إلى فينوس آلهة الجمال، وفي أيام كليوباتره، كانت مناجمه ملكا لها، وقد قدمته بكرم للسفراء المقربين إليها، ولاسيما ما حفرت عليه صورتها الفاتنة، وكان يوليوس قيصر يهوى اقتناء الزمرد وجمعه لجماله، وقيمته، ولما كان ينسب إليه من الخرافات. ³³

كما خلط اللغويون بين الزمرد والزبرجد، وأشباههما، فقد أخطأ المؤرخون فيما كتبوه عن الخزائن، والثروات عند العباسيين والفواطم، عندما وصفوا المقادير الوفيرة من الأحجار الكريمة ولاسيما الزمرد والزبرجد وغيرهما. ³⁴

وقد ذكر أكثر جغرافي العرب، "الزمرد" في كلامهم عن مصر ولعل أشهرهم، المسعودي الذي ذكر في كتابه "مروج الذهب" أن: "الزمرد في أرض البجة وهي قبائل عربية نزلت بين بحر قلزم ونيل مصر، وفي أرضهم معادن الذهب، ومعدن الزمرد"، وحدد مكان المعدن منطقة الصعيد الأعلى من أعمال مدينة قفط. ³⁵

ويقول التيفاشتي عن الزمرد: "معدن الزمرد الذي يؤدي به من التخوم من بلاد مصر والسودان، خلف اسوان يوجد في جبل هناك، ممتد كالجسر فيه معادن تحفر، فيخرج منها الزمرد، قطعاً صغاراً، كالحصى منبثة في تراب المعدن.

إن أول ما يظهر من معدن الزمرد يسمونه الطلق، وهي حجارة سوداء ذات حمرة إذا حمى عليها في النار، خرجت مرقشيشاً ذهبية ثم يحفر فيجد طلقاً هشاً فيه الزمرد في تربة حمراء لينة مشتملة عليه وربما أصيب العرق منه متصلاً فيقطع، وهو جيده، وأما صغيره، فإنه يصاب في التراب بالنخل، وذلك أنهم ينخلون التراب ثم يوجد خلاله ويغسل كما يغسل تراب الفضة، فيوجد فيه الحجر بعد الحجر ويوجد بعضه على تراب أسود كالكحل إلا أنه صغير كالخردل أو كبير قليلاً".³⁶

ويظهر أن معين الطبيعي في مصر قد نضب حوالي القرن 13، بدليل أن المعدنيين والجغرافيين الذين دنوا لنا خبره وجرده بعد هذا العصر، لم يصفوا لنا أي استغلال له في عهدهم³⁷، ومع ذلك، فقد ذكر المقرئزي أنه استمر في استخراج الزمرد من فقط إلى أن أوقف الوزير صاحب علم الدين بن زنبور، العمل بمناجمه لقلة ما يستخرج منها وذلك في أيام السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون.³⁸

والزمرد من الأحجار الثمينة* التي اشتهرت في تطعيم بعض أنواع الحلي النسائية وغيرها في العصور الإسلامية، وخيره كما يرى الجاحظ، هو الشديد الخضرة الصافي،³⁹ ويضيف إلى ذلك ابن الأكفاني فيقول أنه ذو الرونق، والشعاع، وأنه لا يشوبه سواد، ولا صفرة، ولا نثى، ولا عروق بيض.⁴⁰

والزمرد العادي يكون غالباً أخضر باهتاً، أو يميل إلى الاصفرار أو الأبيض الرمادي وغالباً ما يكون مرقشاً "منقطاً بنقط كبيرة" ومن بين الألوان

الأخرى نجد: الأزرق، والأخضر، والأصفر، والأحمر، والوردي أولا لون له. أما لمعته فزجاجية وقد يكون البريل شفافا أو قاتما.⁴¹

ورغم كون الزمرد من الأحجار الصلبة، إلا أنه سهل التشقق، والتفتت ولذا كان ضروريا عند استخدامه في الحلي أن يوضع بحذر في صندوق الجواهر بصحبة الماس، والياقوت والسافير (الياقوت الأزرق)، لأنها أصلب منه، أو يكاد يقرب من درجة صلابتها وقد تتلفه عند احتكاكها به وتخدشه، مما يؤدي إلى إعادة صقله وربما إلى إعادة تهيئته وقطعه من جديد.

وقال ابن الأكفاني عن الزمرد: "إن شرب سحيقه ينفع من السموم المشروبة، ومن نمش الأفاعي ولدغ العقارب".⁴² بينما يرى الأبشيهي، أن من خواص الزمرد، أنه يدفع العين، ويفرج القلب، ويقوي البصر، ويصفي الذهن، وينشط النفس.⁴³

وقال غيره: إنه يدفع الهم والحزن والكسل والصرع، كيفما استعمل، ويزيل الخفقات، والجذام والإسهال، وذات الرئة، والجنين وضعف المعدة، والكبد، شربا وتعليقا، ويفتت الحصى، ويدر البول، ويزيل اليرقان شربا، كما أنه يسهل الولادة دون ألم، ويساعد العذاري على الاحتفاظ بعذريتهن.⁴⁴

اللؤلؤ:

عرف اللؤلؤ منذ القدم، قال عنه أرسطو في كتابه "الأحجار": "الدر واللؤلؤ حجر شريف، وجوهر ثمين معدني حيواني. وهو من أجل الأحجار قيمة وقدرا ونفعاً، وحلية تلبس".

واللؤلؤ نوعان: كبير يسمى الدر، وصغير ويسمى اللؤلؤ، وأجود الدر المدحرج الصافي الشفاف الكبير الحجم الرزين النقي. ولقد سمت العرب اللؤلؤة التي لم تثقب "الخريدة"، وأطلق على الدرة قبل ثقبها "العذراء".⁴⁵

يأتي اللؤلؤ بعد الذهب والفضة في الاستعمال، أو يمكننا القول بأن العرب كانت قد اعتبرت اللؤلؤ سيد الأحجار، إذ كان كثير الاستعمال في صناعة الحلي النسائية. ويتفاوت في الوزن من نصف المئقال إلى مئقال ونصف، وأجود اللؤلؤ النقي المستدير. واللؤلؤ ألوان، فمنه أصفر مستدير ومنه أخضر، ومنه أزرق.

ويحدد الجاحظ وزن الدرة، بما لا يقل عن نصف مئقال، فإن نقص ذلك فهي عندئذ "لؤلؤة" والدرة التي يبلغ وزنها ثلاثة مئاقيل تسمى "الدرة اليتيمة".⁴⁶

ويقول ابن الزبير، أن درة يتيمة بيعت للرشيد*، بسبعين ألف دينار وبلغ سعر درة عادية في نفس الزمن ثلاثين ألفا من الدنانير.⁴⁷

ومن الأسماء الأخرى التي كانت تطلق على اللآلئ "الصدفية" نسبة إلى الصدف الذي تستخرج منه ومن أسمائها أيضا التوأمية⁴⁸، كما كانت تسمى أيضا باللؤلؤة المكنونة، قال سبحانه وتعالى: "يطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون".⁴⁹ كما كانت تسمى اللؤلؤة "بالجمانة". ومن التسميات الأخرى التي أطلقها العرب على اللؤلؤة "الحبة" وهي التي لا تجتمع فيها صفاء الجودة.⁵⁰

كما ذكر اللؤلؤ في القرآن الكريم فقال تعالى: "يخرج منها اللؤلؤ والمرجان"⁵¹ وقد ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل (رضي الله عنه)، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة".⁵² وأخرج الإمام البخاري في صحيحه عنه - رضي الله عنه -، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "أن الحسن في العنبر واللؤلؤ".⁵³

وقال المسعودي: "والغوص على اللؤلؤ في بحر فارس، إنما يكون في أول نيسان إلى آخر أيلول، وما عدا ذلك من شهور السنة، فلا غوص فيها. وذكر المسعودي كيف يتكون اللؤلؤ، وصفات العتيق منه "الجيد" وذكر كيفية

الغوص، وما يلجأ إليه الغواصون من الحيل والأساليب العملية فقال: "وتعلم حرفة الغوص في فارس، ويدفع للتمرين عليها بعض المال، فإن الغواص يتعلم كيف يتنفس من أذانه ويحدث في بدء تعليمه أن تصاب الأذان بالتهاب حاد، ويخرج منها صديد وتعالج بالعقاقير. وتدفع أحسن الأجور للغواص الذي يبقى في أكثر من غيره، وهم يعرفون بعضهم تحت الماء، ولا يعتدون على حدود بعضهم البعض، ولا يدعون التميز على غيرهم، ولكنهم يتبارون في نشاطهم، وأغلب مغاصات اللؤلؤ، في بحر فارس، وبها نحو ثلاثمائة مشهورة مطروقة، ولقد ذكرنا أغلبها في مواطنها أي في الكلام عن سواحل البحار والجزائر. ومغاصات هذا البحر أغنى وأكثر غلة من مثيلاتها، بالهند، واليمن، ولذا أسهبنا في وصفها."⁵⁴

أما في الجزائر، فقد شاع استعمال اللؤلؤ غير المنتظم الشكل وبالأخص الأصفر اللون، وهو من الحلي التي كانت سيدات الجزائر، تهافت على اقتنائه، بدل اللؤلؤ المنتظم الشكل والأبيض اللون.⁵⁵ واستعمل اللؤلؤ بشكل عقود في عدة صفوف، لكننا نجده أيضا يرصع بعض الحلي أو بشكل دلايات في حلي أخرى.

المرجان:

المرجان، لفظ معرب عن اليونانية وأصله مرجانتو Marginto، وقد أطلق اسم المرجان فيما بعد على العروق الحمراء التي تستخرج من البحر، ويتخذ منها الحلي والأعلاق والمسبحات.⁵⁶

وقد ذكر المرجان، في القرآن الكريم في قوله تعالى: "يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان"⁵⁷ وقال أيضا "كأنهن الياقوت والمرجان"⁵⁸. ويلاحظ أن المرجان جاء ردف اللؤلؤ مرة، ومقرونا بالياقوت مرة أخرى، وكان الله عز وجل يريد أن

يلفت أنظارنا إلى أن المرجان لا يقل أهمية كحجر للزينة عن الحجرين الكريمين السالفي الذكر.

والمرجان كما هو معروف، نبات بحري أحمر متشعب ولا شك في أن كثيرا من العرب كانوا يعملون في استخراج المرجان من البحار والذي يؤكد هذا القول، ما ذهب إليه أعشى همدان لقوله:

من كل مرجانة في البحر احرزها -تيارها ووقاها طينها الصدف⁵⁹.

وكان المرجان في أزهى العصور الإسلامية حوالي القرن 4هـ / 10م، يصطاد في شواطئ المغرب الإسلامي، من القالة، إلى سبتة وما إليها.⁶⁰ وأصناف المرجان الجيدة نادرة، يقدم على اقتناءها معظم الأغنياء، وهم يتفننون في أساليب استخدامه في الحلي، والألطف، والتحف. وهو يوجد إما أحمر اللون، أو أسود، وأحيانا أبيض. ويتدرج اللونان الأولان من خفيف إلى غامق. وفي اليابان، يوجد منه نوع أصفر اللون.

والمرجان ناعم الملمس، وبعض أنواعه شديدة الصلابة ولذلك تصنع منه الكاموات، والجواهر المنقوشة، والخواتم، والأقراط. وهو إما شفاف أو نصف شفاف، ودرجة صلابته تساوي 3,50، وثقله النوعي يتراوح بين 2,6 و 2,7.

والمرجان شديد التأثير بالأحماض، فيتغير لونه ويشحب. ويوجد المرجان عند بعض شواطئ البحر المتوسط بالقرب من سواحل تونس، والجزائر، ومراكش، وسردانيواسبانيا، كما يوجد أيضا في الخليج العربي.⁶¹

وقد قيل من منافع المرجان، الكثير والكثير ونسبت إليه قدرات طبية خارقة منذ أقدم العصور. فيذكر الشيخ التيفاشتي فيقول: "إذا علق على المصروع، نفعه، أو رجل به النقرس نفعه، كما يحفظ من الأعين السوء، والأنفس الخبيثة، يجلو الأسنان، ويزيدها بياضا إذا أحرق واستن به".⁶²

وينفع المرجان من وجع العين، ويذهب بالרטوبة إذا اكتحل به، ويقطع اللحم الزائد من قروحها، ويجلو آثارها، ويملاً القروح العميقة لحما، كما ينفع من ظلمة العين، وبياضها وكثرة وسخها. ينفع الخفقان إذا شرب مسحوقا، ويجعل في الأدوية تحل دم القلب الجامد وينفع من ضعفه، إذا شرب نفع من نفث الدم والسحج نفعا بينا، كما أنه إذا شرب ينفع عسر البول، وإذا علق على المعدة نفع من جميع عللها منفعلة بينة، ويقطع نزف الدم من الجسد كله.⁶³

ويقول البيروني أن مركبا طيبا من المرجان، واللؤلؤ، والمسك، والزعفران، والأفيون، والعسل، كفيل بدفع الهم، والجزع، والفرع، وأوجاع القلب.⁶⁴ بينما يقول القزويني: "أن المرجان يقطع نزيف الدم ذرورا، ويقوي العين اكتحالا، وإذا استيك بنخالته جلا الأسنان جلاء حسنا، ومحلولة يشفي من الجذام."⁶⁵

وقد ذكر استخداما طيبا حديثا للمرجان، يتمثل في استخدامه في عمليات التجميل الجراحية المتقدمة، بعد أن اكتشفت قدرته المتميزة على الالتحام بالعظام بسهولة في جراحة الوجه، حيث يعتمد الطبيب إلى حقن الوجه بالمرجان تحت تخدير موضعي، ثم يقوم بعمل شق صغير على مستوى الحاجب ثم تسد فراغات الوجه بالمرجان.⁶⁶

وقد شهدت الجزائر استعمالا كبيرا للمرجان، حيث عرف انتشارا واسعا على كل سواحل الجزائر وبالتحديد في شواطئ القالة التي استمرت، كأكبر مركز لصيد المرجان حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجري/القرن التاسع عشر الميلادي، أين تراجعت بسبب ظهور محطات استغلال أخرى في كل من وهران، وتنس، وشرشال، وأزفون... ومنافسة المرجان الإيطالي الذي أثر كثيرا على استغلال النوع الجزائري، ويستعمل المرجان في ترصيع الحلي خاصة

الفضية منها، أو نجده بشكل قصيبات في العقود مع قطع الفضة. وللمرجان أنواع وأشكال يتحصل عليها بعد عملية الصيد منها:

- المرجان الميت والمتعفن بسبب انفصال الأجزاء عن جذع الحيوان.

- النوع الذي يحمل ثقوبا سببتها الديدان.

- المرجان الأسود.

- المرجان ذو اللون الوردي وهو المفضل في أوروبا ويسمى ببشرة الملائكة.

- المرجان الأحمر وهو النوع المفضل في الجزائر وخاصة في منطقتي

القبائل وميزاب.

ويؤكد بعض الباحثين على كون المرجان له أفضلية في المغرب الإسلامي،

فقد لاحظوا أنه لم يستعمل بالشكل الذي عرف في كل من سوريا، ومصر، وتركيا.

وكان الصائغون في الجزائر، يقومون بصقله بواسطة حجر صلب

رقيق أملس في نفس الوقت، وعادة ما يكون بواسطة قطعة من الخفان

«ponce» بإضافة الماء لتسهيل ذلك، لتحصل بعد هذه العملية على عناصر

مرجانية، ذات أشكال معينة تزين بها مختلف الحلي، أما عن الغصينات

الصغيرة، فهي لا تتلف وإنما يقوم الحرفيين بوضع ثقب بها بشكل طولي،

ويتكونها على صورتها الطبيعية "الخامة" لتستعمل كعناصر مكونة للعقود

فيما بعد.⁶⁷

العنبر:

ويسمى أيضا الكهرمان، أو الكهرمان ويعرف كذلك باسم السيتال

الأصفر نسبة إلى لونه الأصفر الفاقع. يستخرج العنبر من بين طبقات الطين،

والرمل، ويشكل على هيئة حبيبات كروية، أو مطولة قليلا. وهو يستعمل في

عقود للعنق أو لتزيين الشعر، ويتخلل عقود العنق، حبيبات الذهب أو

الفضة، كما عرف الصنّاع استعمال العنبر المزين فيما بعد، وقد انتشر استعماله بكثرة وزاد عليه الطلب بسبب جماله ورخص أسعاره.⁶⁸

الخاتمة

وفي الأخير يتبين لنا أن الحلي وأدوات الزينة عموما يرتبط فيها الحس الفني المصقول بالصناعة الدقيقة المتقنة، وبذلك تنوعت أساليب إنتاج الحلي تبعا لاختلاف الظروف الاجتماعية، والاقتصادية، والفنون والصناعات، ترتبط ارتباطا وثيقا بالمجتمع ورغبة الإنسان في التحلي والتجميل، وهي أقوى الرغبات تأثيرا وأقدمها عهدا وأكثرها استمرارا وأوسعها انتشارا، وقد ساعدتنا النصوص التاريخية التي أولت اهتماما كبيرا لهذا الموروث للتعرف على الثراء الذي تميز به الفن الإسلامي عامة و الجزائر على الخصوص. وفيما يلي نماذج من الحلي التي استعملت فيها هذه الأحجار بصفة منفردة أو مجتمعة.



صورة 1/ تاج لعائلة عاصمية- شذرات الماس و حبات اللؤلؤ -



صورة 2 / قرط مرصع باللؤلؤ وأحجار كريمة متنوعة
- محفوظ بالمتحف العمومي الوطني للآثار القديمة -



صورة 3 / إبريم مرصع بأحجار كريمة متنوعة: الياقوت والزمرد والماس
- محفوظ بالمتحف العمومي الوطني للآثار القديمة -



صورة 4 / مشبك مرصع بالياقوت
و الزمرد والماس
- محفوظ بالمتحف العمومي
الوطني للآثار القديمة -



صورة 5 / خاتم مرصع بالماس
لعائلة عاصمية



صورة 6 / خاتم مرصع بحجر الماس لعائلة عاصمية



صورة 7 / سوار مرصع بأحجار كريمة متنوعة: الياقوت والزمرد والماس
- محفوظ بالمتحف العمومي الوطني للآثار القديمة -

الهوامش:

- 1مرزوق (محمد عبد العزيز)، الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، القاهرة، 1974، ص 148.
- 2 عابد (عبد القادر)، "المعادن في كتب التراث" في مجلة الفن العربي الإسلامي، العدد ، 1336هـ، 118.
- 3 حليمي (علي عبد القادر)، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، الطبعة الأولى، المطبعة العربية لدار الفكر، الجزائر، 1972، ص299.
- 4 نفسه، ص 102.
- 5Eudel (P), L'Orfèvrerie Algérienne et Tunisienne, Jourdan, Paris, 1902, p.155.
- 6 هميمي (زكريا)، علاج الأمراض بالأحجار الكريمة، مكتبة مدبولي، 2004، ص 14.
- 7 نفسه، ص 14.

8 زكي (عبد الرحمن)، الأحجار الكريمة في الفن والتاريخ، دار القلم، القاهرة، 1964، ص 6.

9 هميمي (زكريا)، المرجع السابق، ص 19.

10 الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر ت 255هـ)، التبصرة بالتجارة في وصف ما يستطرف من البلدان من الأمتعة الرخيصة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة، دمشق، 1351هـ/1932م، ص 12.

11 البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد)، الجماهير في معرفة الجواهر، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد الدكن، 1300 هـ / 1936م، ص 93.

12 الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، المرجع السابق، ص 12.

* هو أحد أمراء الدولة البويهية التي حكمت إيران، والعراق (334-447هـ).

** مثقال يساوي 72 حبة من حب الشعير متوسط الحجم.

13 البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد)، المصدر السابق، ص 97.

14 زكي (عبد الرحمن)، المرجع السابق، ص 60

* ومن أهم خواص الماس أنه ناعم الملمس- يتكهرب عند الحك-. يعثر عليه مع بعض الأنواع من الصخور النارية، وخصوصا القاعدية الرواسب التي تشتق منها، أو مخلوطا. يوزن الماس عادة بالقيراط كالأحجار الكريمة الأخرى.

أهم مواطن الماس منذ عرفت مكانته بين الأحجار النفيسة، هي الهند وقد اكتشفت في مناجمها منذ أقدم الأزمان إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وما زال يستخدم في أغراض الزينة بوصفه أنبل الأحجار الكريمة وأروع وأثمن معادن الزينة. وأدرك الأقدمون الصفات الفريدة للألماظ، وبخاصة صفة الصلادة الفائقة، فبدءوا منذ وقت بعيد يستخدمونه في عمليات قطع وصقل وثقب وشحذ الأحجار والمعادن الصلدة.

15 هميمي (زكريا)، علاج الأمراض.....، ص 19.

** هو الجوهري المغربي الذي مارس مهنته في مصر وكان على اتصال وطيد برجال الجواهر في عهد السلطان الكامل.

- 16 التيفاشتي (أحمد بن يوسف، ت 651هـ)، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، تحقيق الدكتور / محمد يوسف حسن، ومحمود بسيوني خفاجي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977، ص 200
- 17 زكي (عبد الرحمن)، المرجع السابق، ص 22.
- 18 الأبشيبي (شهاب الدين محمد بن أحمد، ت 850هـ)، المستطرف في كل فن مستظرف، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1988، ص 45.
- 19 عبد الرحمن (زكي)، المرجع السابق، ص 23.
- 20 سورة الرحمن/ الآية 58.
- 21 القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي)، صبح الأعشى في معرفة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ج 2، 1418 هـ، ص 100.
- 22 مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد)، تجارب الأمم، مطبعة شركة التمدن الصناعية مصر، 1333، ج 2، ص 52.
- 23 الجاحظ، المرجع السابق، ص 13
- 24 الوشاء (أبو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى)، الموثي، مطبعة بريل، لندن، 1302 هـ، ص 127.
- * أم هارون الرشيد الخليفة العباسي.
- 25 ابن الزبير (القاضي الرشيد)، الذخائر والتحف، تحقيق: محمد حميد عبد الله، الكويت، 1959، ص 179.
- 26 زكي (عبد الرحمن)، المرجع السابق، ص 82.
- 27 التيفاشتي (أحمد بن يوسف)، المصدر السابق، ص 225.
- 28 هميعي (زكريا)، المرجع السابق، ص 29.
- 29 نفسه.
- * وقد جمع سيرجون ماندريفيل في القرن الرابع عشر في رسالة طريفة، معظم خصائص الياقوت الطلية والسحرية. وقد ذكر أن من حاز ياقوتة براقية، حققت له أسباب الأمن والوفاق مع جميع الرجال، وحافظ على منصبه وظل مصوناً من جميع الأخطار والمهالك. كما أن الياقوت في اعتقاد الحضارة الهندية القديمة، يجلب الصحة، والفن، والحكمة، والسعادة، كما أنه رمز الحب المثالي الصميم. كما أن الياقوت

عرف بالياقوت النجمي أو باسم Asterias، وتنسب إليه عدة أساطير وخرافات والخطوط الثلاثة التي تظهر على الحجر، ترمز إلى الإيمان والأمل والإحسان وكان يعتقد بعض أهل الشرق أن هذا الحجر، يطرد الفأل السيء، كما أنه يجلب الحظ السعيد لصاحبه بالرغم من قلته.

30 زكي (عبد الرحمن)، المرجع السابق، ص 84.

31 سورة الرحمن / الآية 58.

32 زكي (عبد الرحمن)، المرجع السابق، ص 44.

33 هميمي (زكريا)، المرجع السابق، ص 30.

34 نفسه، ص 30.

35 المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي)، مروج الذهب ومعادن الجواهر،

تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط5، ج3، 1967، ص 43-46.

36 التيفاشتي (أحمد بن يوسف)، المصدر السابق، ص 226.

37 محمد (يعي الهاشي)، "الزمرد في مصر"، مجلة الكتاب، المجلد 10، يوليو، 1951،

ص 697-704.

38 المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج 1، ص 233.

* يتمتع الزمرد اليوم مع الياقوت بنفس المكانة لما يتسم به من الجمال واللون، وتنسب بلورة الزمرد إلى النظام السداسي أي ذات ستة أضلاع، وبلورات الزمرد غالبا ما تكون طويلة ومنشورية وبسيطة التكوين. وتتفاوت درجة صلابة الزمرد من 7,5 إلى 8 وعلى ذلك، يعتبر من الجواهر الصلبة ووزنه النوعي بين 2,6 / 2,8.

39 الجاحظ، المرجع السابق، ص 10

40 ابن الأكفاني (محمد بن ابراهيم)، نخب الذخائر في أحوال الجواهر، دار الكتب

والوثائق القومية المصرية، القاهرة، د.ت، ص 48.

41 زكي (عبد الرحمن)، المرجع السابق، ص 98.

42 ابن الأكفاني (محمد بن ابراهيم)، المرجع السابق، ص 50.

43 الأبشيبي (شهاب الدين محمد بن أحمد، ت: 850 هـ)، المستطرف في كل فن

مستطرف، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1988، ص 49.

44 هميمي (زكريا)، علاج الأمراض.....، ص 47.

- 45 الثعالبي، فقه اللغة، ط 15، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1938، ص 59.
- 46 الجاحظ، المصدر السابق، ص 19.
- * هو أحد الخلفاء العباسيين (170-193هـ) الذي عرفت في عهده الخلافة الإسلامية أوجه التطور والازدهار.
- 47 ابن الزبير (القاضي الرشيد)، الذخائر.....، ص 177.
- 48 البيروني (أبوريحان محمد بن أحمد)، المصدر السابق، ص 107.
- 49 سورة الطور/ الآية 24.
- 50 القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي)، المصدر السابق، ص 99.
- 51 سورة الرحمن/ الآية 22.
- ** العادلون.
- 52 مسند الإمام أحمد، ج 2، ص 159.
- 53 المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي)، المصدر السابق، ص 30.
- 54 نفسه، ص 30.
- 55 Eudel (P), Op.Cit, p. 154.
- 56 زكي (عبد الرحمن)، المرجع السابق، ص 135.
- 57 سورة الرحمن / الآية 22.
- 58 سورة الرحمن / الآية 58.
- 59 شيخو (الأب لويس)، شعراء النصرانية، مطبعة الآباء اليسوعيين، ط 2، بيروت، 1967، ص 385.
- 60 المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي)، المصدر السابق، ج 4، ص 97.
- * يميز الخبراء في المرجان على الأقل مائة نوع من مشتقات اللون الأحمر.
- 61 زكي (عبد الرحمن)، المرجع السابق، ص 147.
- 62 التيفاشتي (أحمد بن يوسف)، المرجع السابق، ص 300.
- 63 هميمي (زكريا)، علاج الأمراض.....، ص 76.
- 64 البيروني (أبوريحان محمد بن أحمد)، الجماهر.....، ص 100.
- 65 القزويني (زكريا محمد بن محمود)، آثار البلاد وأخبار العباد، كتبه فيما عامي 1203-1283، ص

66 هميعي (زكريا)، المرجع السابق، ص 77.

Camps (H), Op.cit, p. 19.67Eudel (P), Op.cit, p. 168.68